مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 13، عدد رقم: 04، ديسمبر 2024، صص: 159- 176
تاريخ الاستلام (2024/04/01) تاريخ القبول (2024/11/25) تاريخ النشر (2024/12/25)

سلطة المكان في تشكيل الهوية في الشعر الجزائري الحديث ديوان أطلس المعجزات لصالح خرفي أنموذجا

The Place Authority in Shaping Identity in Modern Algerian Poetry":Diwan Atlas of Miracles" by Salah Kherfi as a Model

نعيمة بلي[1]. خالد أقيس[2].
مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة
[1] جامعة محمد الصديق بن يحي_جيجل (الجزائر)، naima.belli@univ-jijel.dz
[2] جامعة محمد الصديق بن يحي_جيجل (الجزائر)، k-aguis@univ-jijel.dz

ملخص:
للمكان أهمية كبيرة في حياة الإنسان؛ لأنه يمثل مأواه وموطنه الذي ينتمي إليه، وفيه يكوّن علاقاته مع الآخرين، ولعل هذه العلاقة هي التي أعطت للإنسان المبدع الدافع للتعبيرعن المكان في نصوصه، كما ينبئنا الشعرالعربي عن علاقة الإنسان بالمكان، وإن هجره فقد عاد لذكره ووصفه، فكان المكان في القصيدة العربية اعترافا من الشاعر بسلطة المكان عليه، فتكونت بذلك علاقة تماهٍ مع المكان. وقد حمّل الشعراء الأمكنة بثقافتهم ورؤاهم الفكرية، كما تجلت فيها أحاسيسهم وعلاقتهم بها، لتكشف عن أبعاد دلالية مختلفة، ويصبح للمكان بعدا هوياتيا له دوره في التعبيرعن الوجود والكينونة، لذلك يهدف هذا البحث إلى إبرازعلاقة الهوية بالمكان، وطريقة تجلّي مفهوم الهوية من خلال المكان، في ديوان أطلس المعجزات للشاعرالجزائري صالح خرفي، مع إبراز الأثر الجمالي الذي يتركه المكان على بنية القصيدة؛ ذلك أن للمكان علاقة بتشكل الهوية الوطنية بكل أبعادها الدلالية.

كلمات مفتاحية: هوية؛ مكان؛ شعر؛ وطن؛ انتماء؛ جزائر.

المؤلف المرسل: نعيمة بلي، الإيميل: naima.belli@univ-jijel.dz

Summary:
Place holds great significance in human life; it represents a person's shelter and homeland to which they belong, where they form relationships with others. This relationship likely gives the creative individual the motivation to express place in their texts. Arabic poetry tells us about the relationship between humans and place; even if they abandon it, they return to mention and describe it. Thus, in Arabic poetry, place is an acknowledgment by the poet of the authority of place over it, creating a relationship of identification with it. Poets infused places with their cultures and intellectual visions, reflecting their feelings and relationships with those places, revealing different semantic dimensions. Consequently, place acquires an identity dimension that plays a role in expressing existence and being. Therefore, this research aims to highlight the relationship between identity and place, and how the concept of identity manifests through place in the Diwan 'Atlas of Miracles' by Algerian poet Saleh Kherfi, while also emphasizing the aesthetic impact that place has on the structure of the poem; for place is related to the formation of national identity in all its semantic dimensions.
Keywords: Identity; Place; Poetry; Homeland; Belonging; Algeria

1. مقدمة :

تعدّ علاقة المكان بالهوية من أبرز المواضيع التي شغلت الفكر الإنساني عبر العصور، وذلك لما لهذا العنصر من دور محوري في تشكيل هوية الفرد والجماعة على حد سواء. وفي الأدب، لا سيما الشعر، يبدو المكان أداة تعبيرية غنية، يتم من خلالها استحضار ملامح الهوية الثقافية والجغرافية والاجتماعية للشعوب. وفي السياق الجزائري، تتداخل هذه العلاقة بشكل خاص، حيث يعدّ المكان في الشعر الجزائري مكونا أساسيا، لفهم الذات الوطنية والجماعية في مواجهة التحولات التاريخية والسياسية. كما يبرز الشعر الجزائري كمجال خصب لاستكشاف هذه العلاقة، خصوصا في ظل تاريخ طويل من الاستعمار الفرنسي، الذي طبع الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، وأثر بشكل عميق على مفهوم الهوية. فقد شكلت الأراضي الجزائرية، سواء كانت سهلية أو جبلية، صحراوية أو ساحلية، فضاءات رمزية تغذي الوعي الجمعي للشعراء الجزائريين، ليصبح المكان في قصائدهم أكثر من مجرد خلفية جغرافية؛ بل هو رمز للمقاومة والهوية والنضال. وينطلق هذا البحث من محاولة فهم كيفية تمثل الشعراء الجزائريين للمكان وعلاقته بهويتهم الوطنية، خاصة في سياق الاحتلال وسياسة المسخ الثقافي. كما أن انصهار المكان بالهوية في سياق الثورة، قد

ساهم في تطوير الوعي الجماعي، وكان له دور في استحضار معاني الوطن والذاكرة الجماعية، ليصبح فضاء شعريا غنيا بالمؤثرات الثقافية والسياسية.

إن إظهار العلاقة العميقة بين المكان والهوية في الشعر الجزائري، يتجاوز مجرد الكشف عن البعد الجغرافي، ليصل إلى أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية، تظل حية في الذاكرة الأدبية الجزائرية، وهذا ما عبر عنه شعراء الجزائر في دواوينهم خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وقد اخترنا ديوان "أطلس المعجزات" للشاعر الجزائري "صالح خرفي" نموذجا لهذا البحث، لأننا نهدف من خلاله إلى الإجابة عن هذه الإشكالية: كيف تشكلت أبعاد الهوية من خلال المكان في ديوان "أطلس المعجزات" للشاعر "صالح خرفي"؟

وتتولّد عن هذه الإشكالية تساؤلات أخرى منها: ما علاقة المكان بالهوية؟ كيف راح المكان يمارس سلطته على الشاعر؟ وهل عبّر المكان عن انتماء الشاعر؟ وما هي مختلف الدلالات والحمولات الثقافية التي تمثلها المكان في المتن الشعري؟ هل كان للمكان أثرا جماليا على النص الشعري؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات آثرنا توضيح المفاهيم التالية: مفهوم المكان والهوية وعلاقتهما ببعضهما، ودور المكان في التعبير عن الهوية الوطنية، وذلك من أجل استجلاء مختلف الأبعاد الدلالية للمكان في المدونة المختارة، مع الأثر الجمالي الذي تركه المكان في المتن الشعري.

أولا-مدخل مفاهيمي:

1-1-مفهوم المكان:

اهتم بضبط مفهوم المكان الكثير من النقاد، لأنه مرتبط بالوجود والإنسان، والمكان في التعريف اللغوي: "الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن جمع الجمع. قال تغلب: يبطل أن يكون مكان فعالا لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه؛ قال: وإنما جمع أمكنة فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية لأن العرب تشبه الحرف بالحرف"([1]). فالمكان هنا مرتبط بالجانب المادي الجغرافي حيث يكون الفرد موجودا وكائنا.

أما المكان في التعريف الاصطلاحي: "المكان يرتبط جذريا بفعل الكينونة للعيش والوجود وفهم الحقائق وصياغة المشروع الإنساني"([2]) ونلاحظ ارتباط المكان بالفعل كان يكون الذي

يعني الكينونة أي الوجود والهوية، لأن المكان خلق للإنسان ليتفاعل معه ويحمّله بفلسفته وأفكاره ويتشكل فيه انتماؤه.

كما يعتبر المكان من المكونات الأساسية في النص الأدبي، وله أهمية كبيرة في تحديد ملامحه، وله علاقة بمختلف التقنيات والعناصر الفنية الأخرى، وحضوره في النص الشعري يفتح الخطاب على آفاق معرفية واسعة، خاصة عندما يكون الشاعر مدركا لأهميته في تشكيل شعرية القصيدة، ويحسن استخدامه بلغة وصورة شعرية تروم نقل القارئ إلى عالم متخيل ينسج خيوطه من فضاءات الواقع، ويستحدث علاقة حوارية بين المكان والإنسان، يستنطقه ويسائله.

1-2-مفهوم الهوية:

الهوية في التعريف اللغوي مشتقة من: " الهُوّة: كل وهدة عميقة. وجمع الهُوّة هُوًى. ابن سيّده: الهُوّة: ما انهبط من الأرض. هُويّة تصغير هُوّة. والهَويّة بئر بعيدة المهواة"([3]). ومفهوم الهوية هنا مرتبط بدلالة الأرض والمكان المادي. بينما الهوية اصطلاحا هي: "ما يجعل الشخص أن يكون هو لا سواه"([4]). أي كل الخصائص والصفات التي تميز الإنسان عن غيره وتمنع انشطاره على ذاته ولا يندمج في الآخر.

وللهوية مفاهيم عديدة متشعبة تشعب الفكر الإنساني نفسه، لها علاقة بمجالات معرفية مختلفة، كما تتعلق بالفرد والجماعة، وتختلف الدلالة من عصر لآخر باختلاف السياقات التاريخية، وكذا تنوع الحدود الجغرافية وحمولاتها الثقافية، وما يعنينا بالدرجة الأولى في هذا المقام هو ذلك المفهوم المرتبط بالوطن، وما يحتوي عليه من عناصر تشكل وجوده، خاصة العنصر المادي أو ما تعلق بالحدود الجغرافية، ومن خلال هذه التعريفات نجد أن مفهوم الهوية مرتبط بمفهوم المكان لغة واصطلاحا ارتباطا وثيقا، لذلك فإن المكان من العناصر المكونة للهوية الوطنية لدى الأشخاص والمجتمعات.

1-3-علاقة الهوية بالمكان:

قد نتساءل: ما هي العلاقة بين المكان والهوية؟، فنقول أنه: "من عبقرية المكان تلك القدرة الهائلة على جعل الذين يسكنون فيه يشعرون بتشابك مصالحهم ووحدة مصائرهم، وهكذا فالقطر الذي يسكنه الواحد منا، يحتضن تقريبا كل مكونات الهوية"([5]). أي أن المكان يساهم

في تشكيل الهوية الوطنية لدى مجتمع ما، وكل المميزات الثقافية التي يختص بها ساكنة هذا المكان دون سائر البشر.

وقد عبّر النص الإبداعي عن علاقة الإنسان بالمكان تعبيرا جماليا، عبر مختلف العصور وفي مختلف الثقافات، وكذا تنوّع الأنواع الأدبية، ولعل الشّعر قد أبرز مختلف السمات الجمالية التي يستقطبها القارئ المتذوق، كما يستنطق تلك الأبعاد الدلالية والحمولات الأيديولوجية التي يفرزها المكان في النص الشعري، حيث تحقق المتعة الجمالية ولذة القراءة، وللهوية علاقة بالمكان، حيث "يشكل المكان-بمستوياته الإشكالية المتعددة- هوية من طراز خاص، وأرضية إبداعية مشحونة بالعطاء والتحريض والإثارة على التأمل والكتابة والحياة، وهو ظهير حيوي وإبداعي وثقافي وجمالي جدلي عالي القيمة، وعنصر تكويني جوهري ومركزي في معظم الأجناس الأدبية والفنون الجميلة"([6]). ولعل المقصود بالمستويات الإشكالية للمكان هنا، هو ارتباطه بالجانب المادي والثقافي والسياسي والاجتماعي والتاريخي والديني، وغيرها من الأبعاد الفنية والدلالية التي يرسمها المكان في النص الشعري.

وقد ذهبت "دعاء أحمد البنا" إلى أن: "الوطن هو مكان مهمّ لفهم الهوية"([7]). إذ يرتبط مفهوم الوطن في أحد جوانبه الدلالية بالجانب المادي بشكل كبير، فالحدود الجغرافية أساسية في تشكيل الوطن ككيان سياسي واجتماعي وثقافي، وكذلك ضرورية لتشكيل الهوية الوطنية لدى الأفراد المنتمين لهذا المكان، كما أنهم يتّحدون به اتّحادا وجدانيا روحيا، يتولد معهم الشعور بالانتماء والإحساس بالهوية الوطنية، والتي هي: "الهوية المشتركة التي تجمع بين مجموعة من الناس في مكان محدّد جغرافيا وسياسيا يعرف باسم دولة محددة"([8]). إذا فالشعور بالاشتراك وعدم الاختلاف في عناصر هوياته بين مجموعة أفراد، هو ما يولد الإحساس بالانتماء داخل حيز جغرافي واحد.

ولأن "العلاقة بين الهوية والمكان هي علاقة تماهٍ في أعلى درجاتها الممكنة، فالهوية تتجسد وتتمفصل وتتراءى وتتمشهد في صورة المكان دائما، مثلما المكان يؤسّس هويته كي يعيش ويدوم، إذن لا هوية بلا مكان ولا مكان بلا هوية"([9]). فالحديث عن المكان وعلاقته بتشكل ملامح الهوية الوطنية، وما ينطوي عليه من أبعاد دلالية وما يتركه من آثار جمالية على جسد النص الشعري، ينقل القارئ من حيز واقعي إلى فضاءات لغوية متخيلة، تأخذه إلى إنتاج دلالات وطرح مستويات تأويلية غير مسبوقة للمكان داخل نسيج النص.

ثانيا-ثنائية الهوية والمكان و أبعادها الدلالية في الديوان:

2-1-من خلال العنوان:

تعد عتبات النصوص مفاتيح للولوج إلى عوالم النص الداخلية وفك شفراتها الرامزة، والعنوان هو العتبة الأولى التي تصادف القارئ وتسمح له بسبر أغوار النص، وذلك بما يحتويه من أبعاد دلالية يمكن أن تكون لها علاقة بموضوع النص، ويذهب "جميل حمداوي" إلى أن: "العنوان من أهم العتبات النصية الموازية المحيطة بالنص الرئيس، حيث يساهم في توضيح دلالات النص، واستكشاف معانيه، الظاهرة والخفية، إن فهما وإن تفسيرا، وإن تفكيكا وإن تركيبا، ومن ثم فالعنوان هو المفتاح الضروري لسبر أغوار النص"([10]).

ولعل عنوان الديوان "أطلس المعجزات" يحيل على دلالات كثيرة وممكنة، فالشاعر اختار أن يكون المكان عتبة وبوابة لنصه الذي يحقق معجزات تبدو مستحيلة، فكلمة "أطلس" والتي تعني الجغرافيا وهي أيضا تسمية للجبل، وتمثل المكان الذي ينتمي إليه الشاعر والشعب معا، وهو جزء من كل أي جزء من الجزائر الوطن، فهو الذي يساهم في حماية واستمرارية الثورة وتحقيق الحرية، وبذلك يصف ويختزل معظم دلالات النص في هاتين اللفظتين، فكلمة "معجزات" تدل على قوة وقدرة الجبل في الإتيان بالحرية، وحماية الحدود الجغرافية للوطن، وبالتالي حماية الهوية الوطنية من الضياع، كما يغري العنوان الباحث بتفكيك قصائد الديوان واستنطاق دلالاتها، إذ يمكن للجبل كمكان مادي أن يحمّل بقيم أخرى، تساهم في تعزيز أبعاد الهوية وارتباط الإنسان بها وجدانيا وفكريا، وهو المكان الذي يحقق كينونة الفرد ووجوده، كما أن الجبل يوحي بالشموخ والعزة والقدرة على المقاومة.

2-2-من خلال المتن الشعري:

المكان حيز جغرافي مادي في الواقع، لكنه في النص الشعري يصبح فضاءً دالاً على عدّة معاني، كما يشحن بحمولات ثقافية، خاصة إذا ما تشبع برؤى فكرية وإيديولوجية تخص الشاعر أو مجتمعه، والقارئ يستنطقها من خلال محاورة ذلك المكان ودلالاته في النص، ونحن أمام مدونة شعرية اختار صاحبها أن يكون للمكان حضورا طاغيا على قصائده، فجاء مشحونا بقيم دينية واجتماعية وثقافية وتاريخية، كما أنه يخضع لتقاطبات مكانية حسب سياق توظيفه والدور المنوط به تأديته، وسنرى فيما يلي مختلف تلك الأبعاد الدلالية خاصة في ارتباطها بالهوية.

أ-البعد الوطني للمكان:

حسب الناقد "عبد السلام المسديّ" فإن: "مفهوم الهوية الوطنية يشير إلى حالة الولاء والانتماء التي يشعر بها الفرد تجاه المكان والمجتمع اللذين يعيش فيهما"(11)، وهنا يتجلى دور المكان في بلورة وتشكيل مفهوم الهوية الوطنية وذلك الشعور بالانتماء والارتباط الوجداني، ولأن الشاعر الجزائري قد كان لسان حال مجتمعه في فترة الاحتلال الفرنسي، فقد أبرز تلك العلاقة الوثيقة بين الشعب الجزائري والأمكنة التي يعيش فيها، وصور مختلف التجارب التي عاشها والحروب التي خاضها ضد المحتل، فمن أول قصيدة بعنوان "أوراس" يضعنا القارئ أمام الدلالات الغالبة على النص، ومن أول بيت يطل علينا المكان بدلالة مهيبة:

مجد البلاد تشيده (أوراس) والنار في نهج العلا نبراس(12)

ففي هذا البيت يؤسس المكان لهوية الوطن، فجبال الأوراس وهي جزء من كل، قد صنعت حضارة الجزائر ومجد الثورة ضد المحتل الفرنسي، وكانت للمقاوم الثائر الدرع الذي يحتمي به، فأصبح الجبل ذا علاقة روحية مقدسة معه، ولابد أن يكون للمكان تأثيرا على الدخيل أيضا، ففرنسا لم تستطع تجاوز جبال الأوراس وشموخها حسب الشاعر، حتى أصبح مقدرا لها مواجهتها، يقول الشاعر:

لهو المقدر أن يكون اليوم أمرك في الحياة مصيره أوراس(13)

ويقصد حتفها ومصيرها بالهزيمة أمام تحقق معجزة نيل الحرية، ومن القصيدة الأولى إلى آخر قصيدة في الديوان، يكشف المكان عن الهوية الوطنية للجزائريين، إذ تسيطر جبال الأطلس على دلالات القصائد، حتى أصبحت ملحمة تاريخية، فآخر قصيدة في الديوان بعنوان الديوان نفسه "أطلس المعجزات" يقول الشاعر فيها:

يا ابنة الأطلس الحبيب تسامت حرة حملتك عبء الحرائر(14)

وهنا يقارب الشاعر بين هيبة جبال الأطلس، وبين دور ومكانة المرأة وهي سليلة هذه الجبال، والتي تعادل قيمة الوطن الجزائر، لأنهما ركيزتان هامتان في الحفاظ على هوية الوطن والمجتمع، فكثيرا ما استعمل الشعراء المرأة كرمز للوطن، كما يعبر عن دور الجبل في شحذ همم الثوار أثناء الثورة التحريرية، يقول:

أيها الزاحفون زحف المنايا في ذرى الأطلس الأشم المصابر
يا نسور الجبال حدق منكم رابض في الثرى وحلق كاسر(15)

ويقول في قصيدة "الجنون الذري" متحدثا عن دور الصحراء في الدفاع عن الوطن، هذا المكان الزخم بالثقافة العريقة والذي كان له تاريخا حافلا في المقاومة الشعبية، والحفاظ على أصالتها ضد الجرائم الوحشية التي قامت بها فرنسا، خاصة حادثة تفجير القنبلة الذرية في صحراء الجزائر:

فشلت في الجبال قنبلة البطـ ش، فراموا تفجيرها في الصحاري
ذرة الرمل، صخرة الجبل الشا مـخ، سيان في الوفـا للذمار
إن تكن قسوة الجبال جليدا، إن بطش القفار لفحـــة نـــار
من يته في مجاهل الأطلس الوعـ ـــر، فصحراؤه بغير قــــرار[16]

فالشاعر يوظف المكان كجبال الأطلس والصحراء، ليبرز انتماء الشعب له وارتباطه به وجدانيا وروحيا، وكذا إبراز دوره في التعبير عن رفضه لتدنيس أي شبر من هذه الأرض، فعناصر مثل الصخرة والرمل لها من الأهمية الكبرى في مقاومة الآخر والمسخ الهوياتي.

ويعتبر المكان داخل بنية النص الشعري وسيلة ثقافية دفاعية عن الهوية الجمعية، ذلك أن: "وظيفة العامل الثقافي باعتباره أساس الهوية الجمعية قد تكون وظيفة إنشائية وحفاظٌ على الذات كما في حالة الاحتلال والاستعمار"([17]). وهو بالتحديد ما حاول الديوان التعبير عنه، يقول الشاعر في قصيدة "الصاعدون":

بين الروابـي الغافية
في سفح أطلسنا الحبيب
سهرت عيـون دامية
تقفو خطى شبح غريب
عبثت بأحلام لها كف الجراح فتكحلت بالسهد تنتظر الصباح
تلك العيون أيـا أخي عربية سهرت لنا
وخطى الغريب دخيلة جاءت تمزق أرضنا([18])

فعندما يربط الشاعر بين المكان وانتماء الشعب باستعمال ضمير "النحن" الجمعي، في قوله "أطلسنا" و"أرضنا" لا شك أن هذا يدل على أن هذه الأمكنة قد أعطت الشعب ذلك الإحساس بالانتماء للجماعة، فهي خاصة بالمجتمع الجزائري ككل وليس الشاعر فقط.

ب-البعد التاريخي للمكان:

أخذ المكان حيزا هاما في الأعمال الأدبية والدراسات النقدية، وارتبط بأبعاد فنية ودلالية متنوعة، وقد وظف في القصيدة الجزائرية حسب رؤية الشاعر الفكرية وتجربته الشعورية، وفي فترة الاحتلال نحى المكان منحى وطنيا ثوريا غالبا، وكان الهدف منه تعميق الارتباط الهوياتي بالأرض والوطن ومقاومة المحتل، فراح يعبر عن البعد الوطني والتاريخي والديني والثقافي، وفي قصيدة "نوفمبر" يقرن الشاعر ذكر الأمكنة المختلفة بحقب زمنية ماضية، تتفيأ رسم عبق الحضارات وشخصياتها الخالدة، يقول الشاعر:

أقسمت بالصحراء مهدا لانبثا
ق الوحي نقاها حراء وطهـــرا
سنعيد ذكرى القادسية للنهى
تهوى بكسرى أو تطيح بقيصرا
سنشنها عمريـــة سعديـــة
سنثير رملتها قتامـا أغبـــرا[19]

ويقسم الشاعر هنا بالصحراء العربية مستحضرا تاريخها العريق، فهي مهبط الديانات ومهد الأساطير، ويستخدم عناصرها المهيبة ليشحن القصيدة بطاقة مكانية خاصة، تروم الإفصاح عن حمولات ثقافية منها تلك الدلالة المقدسة، لإعادة مجد الأماكن العربية كالقادسية مثلا، وخلق حوارية بين المكان والتاريخ بالرجوع إلى حقبة زمنية ماضية، ومقاربة تجربة الجزائر مع الاحتلال الفرنسي، بتجربة العرب مع الروم إذ يرمز لها بشخصية "كسرى وقيصر"، خاصة عندما يتحدث بضمير "النحن" مثل "سنعيد، سنشن، سنثير"، وبذلك يؤكد على البعد الجمعي أي العلاقة بين الأمكنة الجزائرية والأمكنة العربية.

وتأسيسا على ذلك فقد استخدم الشاعر الجزائري مختلف الأمكنة الحضارية العريقة باعتبارها رموزا تاريخية، ليذكر القارئ والمحتل أن الجزائر لها هويتها ووجودها، فالشاعر هنا يحتفي بالسلف وما خلّفوه من فضاءات ثقافية وحضارية، فالمدن الجزائرية مثل "سيرتا" و"القصبة" هي أماكن لها تاريخ مجيد، ودور كبير في إبراز حضارة الجزائر وتحديد موقعها في العالم، وقد كانت لها فتوحات علمية ومزدهرة ثقافيا وفكريا، وكانت ممالك عزّ وجاه تضاهي الآخر في شتى المجالات، لذلك يلجأ الشاعر إلى استذكارها كنوع من الافتخار والاستنهاض

والمقاومة، وصدّ كل الأكاذيب الفرنسية، حيث ادّعت أمام العالم أن الجزائر غير متحضرة وليس لها تاريخ، وبأنها تقوم بنشر وتعليم الشعب الجزائري. يقول في قصيدة "عهد جديد":

في البراري وفي الرّبى في المداشر

سوف نلتفّ للمنى، للبشائـر

حيّ سرتا وطف بواد سحيق

خبّر الأهل أننـا في الطريق([20])

نلاحظ أن الشاعر قد استحضر حقبة زمنية عريقة من تاريخ الجزائر، عبر ذكر الاسم القديم لمدينة "قسنطينة" وهو "سيرتا"، ليؤكد أن علاقة المكان بالتاريخ في القصيدة هو علاقة بالزمن؛ ذلك أن المكان يمثل تراث أمّة ما في حقبة زمنية ماضية، حيث حيث "يتسم المكان التاريخي بكونه متجذّرا في الزمن ومستمدّا حيويته وديمومته من اندماجه الزماني"([21])، وكما يتصف بالاستمرارية والدّيمومة، يخضع أيضا للتغير بفعل الزمن، "والتاريخ، وهو الزمن الذي يعطي للمكان تلك القيمة المتغيرة من عهد لآخر"([22]). هذا وقد مثلت الأماكن تاريخ الأمة وارتبطت بالوعي الجمعي للشعب.

ويظهر المكان التاريخي في القصيدة من خلال ما شيّده الإنسان من منشآت وعمران ومدن وصروح وقلاع وقصور، غير أن هذه الأمكنة تصير محمّلة برؤى فكرية ودلالات مرتبطة بحاضر يعيشه الشاعر، يتخذ منها مطية ليعرج في فضاءات التخييل الشعري، تروم خلق حوارية بين التاريخي والشعري. يقول الشاعر عن "حي القصبة" في قصيدة "مأساة حي القصبة" مستحضرا أحداثا تاريخية جرت بها:

على الأحرار أعلنها حدادا ... وأرسل دمعك الغالي مدادا

فحي القصبة التهمته نار ... فبات المرء والمأوى رمـادا

وداركم تملى ساكنوها ... وأسلس حظهم لهم القيادا([23])

إلى أن يقول:

فلو أبصرت ذلك، قلت عمري ... رهين للجزائر، أو تفـادى

فتلك القصبة المصلاة نارا ... فزادت نار ثورتنا اتقـادا

فهل جبروتها أطفا لهيبا؟ ... وهل بلغوا بقسوتهم مرادا؟([24])

فالمقصود من ذكر مكان قديم كحي "القصبة" والذي له تاريخ عريق ضارب في الزمن الماضي، هو التأكيد على دور المكان في المقاومة والدفاع عن الوطن والهوية، وحماية هذا المكان من الدمار، فالمكان هنا له دلالة المقاومة من أجل استرجاع السيادة والكيان الجزائري المغتصب، وذلك من خلال اعتبار هذا المكان وما يجري فيه من أحداث مأساوية، المرجع التاريخي للفرد والأمة الجزائرية، كما تبدو كأنها وثائق تاريخية بصورة شعرية جمالية، تجسد مبدأ المقاومة الثقافية للشعب الجزائري في حقبة حساسة من التاريخ الجزائري الحديث، والهدف منه التطلع إلى مستقبل واضح.

ت-البعد القومي للمكان:

لقد كان لتوظيف المكان هدف واضح المعالم منذ البداية في الديوان، إذ جاء خدمة لمشروع الحفاظ على الهوية الوطنية، وذلك عبر ربط دلالات المكان المختلفة بالانتماء العربي، فأصبح للمكان بعدا قوميا عربيا وليس جزائريا وطنيا فقط، وذلك في صورة التآزر مع الإنسان والوعي بقيمته وحقه في تقرير مصيره، وفي هذه القصيدة التي عنوانها "نوفمبر" نجد الشاعر يربط بين جبل "الونشريس" والهوية القومية العربية، عبر ذكر مختلف الأمكنة الفلسطينية التي تتعرض للاحتلال الصهيوني، مبينا عن بعد قومي للمكان، يقول:

يا صيحة في شرقنا العربي تحـ دوالعائدين وتستفز الأخضرا
يا إخوة الجبل الأشم لكم ندا رددتـه الونشريس وجرجـرا
جرحان نحن وأنتمو في ملتقى الريات، وحدنا الضماد وأصهرا
يا إخوة الوطن السليب لنا غد سيلـوح ملتهب المطالع أحمـرا
قسما ستجمعنا ليافا عودة الغـ ازي، إذا انبلج الصباح وأسفرا
عيناك يا يافا سنجعل عهد اسرا ئيـل بين جفونها طيفا سـرى(25)

ونجد الشاعر هنا لا ينفك يعقد مقاربة بين أماكن من الجزائر، ممثلة في جبال "الونشريس" و"جرجرة"، وبين مدن عربية تعرضت للاحتلال مثل "يافا"، وهنا يتجلى خطاب قومي عربي غيور على الأرض، فيدعو للتمسك بالمكان وبحبل المقاومة والثورة على الاحتلال الفرنسي والصهيوني في آن معا، وذلك نظرا لتشابه ظروف الحياة بين القطرين والتجارب الإنسانية بين الشعبين الجزائري والفلسطيني، فالشاعر إذا واع بما يكتب ولا يكتب عن

الأمكنة عبثا، بل يقصد من وراء ذلك بسط انتمائه الهوياتي والقومي، ثم الدعوة إلى مقاومة الآخر.

ث-البعد الديني للمكان:

لاشك أن الدين في بعض المجتمعات يعد ركنا أساسيا من أركان الهوية، وبالتالي تخصص له فضاءات خاصة يمارس فيها الفرد شعائره وذلك ليعزز إحساسه الروحي، كما نجد أن الشاعر لا ينفك يذكّر بقيمة المكان الدينية، لأن الإنسان تحكمه علاقة روحية مقدسة بالمكان، تجعله يشعر بالألفة والطمأنينة، ومن هنا يتشكل البعد الديني للمكان، لكن إذا ما حدث وتعرض للتدنيس تجده يشجب ويندد، كما فعل الشاعر في قصيدة "عهد جديد" حيث يقول:

يوم يعتز في التراب الرفاة	**بدماء بها أتتنا الحياة**
وعلى روحها تقام الصلاة	**في رحاب كتشاوة والدعوات**
كان ناقوسه نذير مخاطر	**فاعتلاه مؤذن للبشائر**
يوم يخبو دوي تلك المدافع	**لتدوي بالله أكبر صوامع**
وهتاف بالنصر يغزو المجامع	**ومذيع نداه ملء المسامع**
أنت حر أخي أنت سائر	**نحو نصر وعزة للجزائر**(26)

فمسجد "كتشاوة" معلم ديني يعبر عن الهوية الدينية للشعب الجزائري، وعند تعرضه للتدنيس وحوّل إلى كنيسة من طرف الاحتلال، جعل منه الشاعر قضية يسلتهم منها مادته الشعرية، وذلك لوعيه بأهمية هذا المكان المقدّس في التعبير عن الهوية الدينية للفرد الجزائري، حيث يلجؤون إليه لشعورهم بالطمأنينة والأمان داخله في ظل المآسي التي يعيشها.

ج-هنا/هناك:

لا يمكن للمرء أن يعرف ذاته إذا لم يجد من يختلف عنه، وعليه فمفهوم الهوية ينبني على تخوم الغيرية، و"لا تتضح ملامح الهوية دون لقاء مع الآخر"(27)، كما يمكن أن يكون هذا "الأنا والآخر" إنسانا أو ثقافة أو عقيدة أو لغة أو دينا أو مكانا أيضا، وفي الديوان نجد الشاعر يعقد مقارنة بين المكان الجزائري الذي يمثل الهنا/ الأنا/ الهوية، والمكان الفرنسي الذي يمثل الهناك/ الآخر/ الغيرية، وهنا تحديدا نفهم أن المكان ليس حيزا ماديا فقط، بل هو صانع للكينونة والحضارة والثقافة، فكما يعرف الإنسان ذاته في ظل وجود الآخر، تدرك قيمة

المكان عند مقارنته بمكان آخر يختلف عنه بما يحمله من حمولات ثقافية، فنجد الشاعر في قصيدة "الجزائر في الإضراب العام" يقول:

يا نضارا عواصم الغرب تعشو في ضيـــاه، فلا تبين لناظـر

وقرانـــا نهارهـــا يتمطى في فراش الأسى، وليل المخاطر[28]

فهنا تمثل لفظة "قرانا" مكان الانتماء رغم ما يعانيه من أسى وخراب، في حين مثلت "عواصم الغرب" مكانا للدلالة على الآخر المتطور، وقد ساعدت ظروف الظلم والاحتلال في تكوين هذه الصورة النمطية والمقارنة بين الأنا والآخر لدى الشعراء، حيث يرتبط تصوره عن غيره بالثورة والرفض والتمرد. كما يقول في قصيدة "أطلس المعجزات":

وعلى السين راية من ضباب وعلى الأطلس الأشم أعاصر(29)

فالضباب هنا يوحي بعدم وضوح الرؤية ووجود إشكالية الانتماء، بينما الأعاصر تبرز القوة والرغبة في إثبات الذات، فهذه المقارنة بين جبال "الأطلس" ونهر "السين"، وبين "القرى" و"عواصم الغرب"، تبرز عن ثنائية مكانية في هذا النص الشعري، وقد أتاحت لنا هذه الأمكنة الإمساك بتقاطب مكاني دلالي هو"الأطلس+القرى" أي الهنا الذي يمثل الجزائر وهويتها، والهناك المتمثل في "عواصم الغرب+السين" الذي يعبر عن هوية فرنسا المختلفة.

لا شك أن مختلف الأبعاد الدلالية التي راح المكان يكشف عنها في الديوان، تصب كلها في تشكيل الهوية وتحديد ملامحها، فالوطنية والتاريخ والقومية والدين والآخر، كلها ركائز تساهم في إبراز مفهوم الهوية وأبعادها، إضافة إلى المكان محمّلا بشحنة عاطفية صادقة يشترك فيها الشاعر والقارئ معا، وتعبر عن معاني الحياة في جوانبها المختلفة.

ثالثا-جماليات المكان في الديوان:

لقد شاع في الشعر العربي عموما والجزائري خصوصا، استحداث تقنيات وخصائص أسلوبية من شأنها أن تشكل شعرية النص الأدبي، لذلك لجأ الشاعر إلى استحضار الأمكنة والتي تكشف عن أبعاد فنية ليرسم معالم الجمالية في النص الشعري، من بينها المكان الذي يساهم في تأسيس وبناء التجربة الشعرية، "حيث أصبح ينظر إليه على أنه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكل بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبي" (30). ولعل الهدف من دراسة جماليات المكان، هو إبراز دور اللغة في تحديد مواطن الجمالية في القصيدة؛ لأن لها قيمة دلالية ودورا أدبيا تعبيريا، ولأن

المكان في النص الشعري هو تعبير لغوي، لطالما شكلت الأمكنة بمختلف أنواعها وتقاطباتها منبعا لجماليات الإبداع والتعبير، وذلك راجع لطبيعة العلاقة بين الإنسان والمكان وبين المكان والإبداع.

واللغة من أهم وسائل التخاطب والتواصل وتبليغ المقاصد، وينطبق ذلك على العمل الأدبي عامة والشعري خاصة، فهي وسيلة في يد الشاعر لتبليغ المقاصد للمتلقي، ولها دور كبير في معالم المكان وإبراز جمالياته، تجعله ينبض بالحياة والإثارة والتشويق لاكتشاف دوره في إرساء ثوابت الهوية، وذلك راجع إلى قدرة الشاعر في استخدام الضوابط اللغوية وفي تحديد معالم الأماكن، "فاللغة تكسب المكان خصائص فيزيقية ومجردة في آن معا، وهذا من زاوية النظر إليه على أنه عنصر شكلي وتشكيلي في العمل الفني، ويتبدى هذا بصفة خاصة على المستوى النحوي من خلال استعمال ظروف وأسماء المكان"([31]). ففي المدونة نجد الشاعر "صالح خرفي" يسمي الأماكن بأسمائها الحقيقية، فنجد "الأطلس" و"أوراس" و"الونشريس" و"جرجرة" و"تبسة" و"القصبة" و"سيرتا" و"تقرت" و"الأغواط" و"بجاية" و"باتنة". وهي مدن جزائرية واقعية نسج من خلالها الشاعر خيوط المتخيل الشعري في قصائده، ويصنع شعرية الهوية والمكان معا، رغم أن المكان في الديوان قد اقترن عموما بالثورة من الناحية الموضوعاتية.

إلى جانب دور اللغة في تشكيل هوية الشعر كجنس أدبي، وتشكيل عنصر المكان كركن من أركان القصيدة، فهي تبرز دور المكان في تشكيل الهوية الوطنية، نجد أيضا أن ثيمة المكان في الديوان قد مزجت بين الجانب الفني والفكري، والتي أبرزت رؤية الشاعر الفنية والفكرية وانتماءه الهوياتي، وليس انتماءه فحسب بل انتماء الشعب بأكمله، فالمكان كوّن صورة شعرية قوية وصادقة تجبر القارئ على التفاعل والاستنطاق والمساهمة في عملية القراءة.

خاتمة:

ختاما لهذا البحث الذي عالج العلاقة بين المكان والهوية، في ديوان "أطلس المعجزات" للشاعر الجزائري "صالح خرفي"، رأينا فيه كيف أن للمكان سلطته الواقعية والمتخيلة على فكر الشاعر الجزائري، إذ يساهم في إرساء مرتكزات الهوية الوطنية للمجتمع وللشاعر ذاته، خاصة إذا ما خرج من الناحية المادية إلى الناحية الإبداعية وحقق الشعرية النصية، ومن جملة النتائج التي توصلنا إليها:

-من خلال تعريف المكان والهوية وجدنا أنهما مرتبطان لغويا ودلاليا.

-المكان من الركائز المهمة لصناعة الهوية الوطنية لدى الأفراد والجماعات.

-للمكان بعد تاريخي مرتبط بحضارة الشعب الجزائري، كما أبان عن قدرته على الاستمرارية عبر الأزمنة المتعاقبة رغم التغيرات والأحداث التي تطرأ عليه.

-ارتباط المكان بالجانب الديني له أهمية في الحفاظ على الهوية الدينية في ظل وجود الآخر.

-كان للمكان في الديوان علاقة بالقومية العربية كوجه من أوجه المقاومة الثقافية ضد المحتل.

-لجأ الشاعر إلى عقد مقارنة بين الأمكنة الجزائرية والأماكن الغربية والفرنسية، ليبرز خصوصية الهوية الجزائرية التي تختلف حمولاتها الثقافية عن ثقافة الآخر.

مراجع البحث وإحالاته:

1 جمال الدين أبو الفضل بن محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري: لسان العرب، مج 14، مادة مكن، دار صادر، بيروت، ط 4، 2005م، ص 113.

2 ياسين النصير : إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1986م، ص 64.

3 جمال الدين أبو الفضل بن محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري: لسان العرب، مج 15، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 4، 2005م، ص 116-117.

4 يوسف محمد رضا: معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط 2، 2001م، ص 1693.

5 عبد الكريم بكار: الهوية المفهوم..الإشكالات..الحلول، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط 1، 2021م، ص 55.

6 محمد صابر عبيد: الشعر بوصفه هوية من التشكيل إلى العلامة، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2014م، ص 16.

7 دعاء أحمد البنا: دراما المخابرات وقضايا الهوية الوطنية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2019م، ص46.

8 المرجع نفسه، ص47.

9 محمد صابر عبيد: التنوير الروائي، استراتيجية العلامة، فضاء التأويل، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2015م، ص95م.

10 جميل حمداوي: سيميوطيقا العنوان، دار الريف للطبع والنشر الالكتروني، المغرب، ط2، 2020م، ص08.

11 عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط 1، 2014م، ص 246.

12 صالح خرفي: أطلس المعجزات، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، د ط، د ت، ص 11.

13 المصدر نفسه، ص 15.

14 المصدر نفسه، ص234.

15 المصدر نفسه، ص237.

16 المصدر نفسه، ص 155.

17 البشير ربوح وآخررون: السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، ط 1، 2016م، ص 132.

18 المصدر نفسه، ص199.

19 المصدر نفسه، ص178.

20 المصدر نفسه، ص114-115.

21 حسن سالم هندي إسماعيل: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث دراسات في البنية السردية، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2014م، ص 232.

22 شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م، ص 44.

23 صالح خرفي: أطلس المعجزات، ص39.

24 المصدر نفسه، ص41.

25 المصدر نفسه، ص 172.

26 المصدر نفسه، ص117.

27 ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 2013م، ص17.

28 المصدر نفسه، ص214.

29 المصدر نفسه، ص235.

30 يوري لوتمان وآخرون: جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988م، ص 03.

31 قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر-دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، من منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2001م، ص 278.

قائمة المصادروالمراجع:

أ-المصادر:

(1) صالح خرفي: أطلس المعجزات، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، د ط، د ت.

ب-المراجع:

1 البشير ربوح وآخررون: السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، ط 1، 2016م.

2 أنطوان نعمة وآخرون: المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مادة مكن، دار المشرق، بيروت، ط 2، 2001م.

3 جمال الدين أبو الفضل بن محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري: لسان العرب، مج 14، مادة مكن، دار صادر، بيروت، ط 4، 2005م.

4 جميل حمداوي: سيميوطيقا العنوان، دار الريف للطبع والنشر الالكتروني، المغرب، ط2، 2020م.

5 حسن سالم هندي إسماعيل: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث دراسات في البنية السردية، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2014م.

6 دعاء أحمد البنا: دراما المخابرات وقضايا الهوية الوطنية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2019م.

7 شاكر النابلسي: جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م.

8 عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط 1، 2014م.

9 عبد الكريم بكار: الهوية المفهوم.. الإشكالات.. الحلول، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط 1، 2021م.

10 قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر-دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، من منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2001م.

11 ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، عالم المعرفة، الكويت، د ط، 2013م.

12 محمد صــابر عبيد: التنوير الروائي، اســتراتيجية العلامة، فضــاء التأويل، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط1، 2015م.

13 محمد صــابر عبيد: الشــعر بوصــفه هوية من التشــكيل إلى العلامة، دار غيداء للنشــر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2014م.

14 ياسين النصير: إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1986م.

15يوري لوتمان وآخرون: جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988م.

16 يوســف محمد رضــا: معجم العربية الكلاســيكية والمعاصــرة، مكتبة لبنان ناشــرون، بيروت، لبنان، ط 2، 2001م.